

Mohamed Taifouri**

محمد طيفوري*

إسلام السوق: جدلية الديني والاقتصادي

قراءة نقدية

**Islam and the Market:
Dialectic of the Religious and Economic**

الكتاب : إسلام السوق: الثورة المحافظة الأخرى
العنوان الأصلي : *l'islam de marché: L'autre révolution conservatrice*
الكاتب : باتريك هايني
المترجم : عومرية سلطاني
مكان النشر : القاهرة
الناشر : مدارات للأبحاث والنشر
تاريخ النشر : 2015
عدد الصفحات : 225

متعددة؛ إذ تحضر سوسيولوجيا الميدان (المعيشة) بعدد وافر من الأمثلة والشواهد من بلدان عربية وإسلامية، إلى جانب التحليل النفسي الاجتماعي في وصف الظواهر ومحاولة تقديم نموذج تفسيري - بتعبير الراحل عبد الوهاب المسيري - لتحولاتها. كل ذلك، مضافاً إليه مدخل بحثي جديد، يرتبط بالتحليل السوسيولوجي الاقتصادي للحركات الإسلامية.

ويعلن بذلك تجاوزه الدائرة الضيقة للبحث التي رسمها الإسلامولوجيون - العرب والغربيون

لا يقرأ باتريك هايني (P. Haenni)⁽¹⁾ في كتابه **إسلام السوق: الثورة المحافظة الأخرى** التحولات النوعية للحركات الإسلامية على مستوى الماكرو، وإنما يركز على التحولات النوعية في التدين لدى عينة من الأعضاء تتقاطع سماتها مع فرضيات الباحث، وتستجيب خصائص هؤلاء مع زاويته البحثية (الميكرو).

وقد اعتمد الباحث في أطروحته هذه مقارنة معرفية متنوعة، تتداخل فيها مجالات معرفية

* باحث في العلوم القانونية، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية، جامعة محمد الخامس أكادال - الرباط، المغرب.
** Researcher in Legal Sciences at the Faculty of Law, Economics and Social Sciences, Mohammed V University at Agdal - Rabat, Morocco.

الإسلامية، والرافضة في الوقت نفسه الدخول في قلب الصراع السياسي، سواء كان صراعاً بين الحركات الإسلامية ذات البعد السياسي والأنظمة الحاكمة أو بين الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية.

وتعود بداية انتشار هذا النمط إلى النصف الثاني من تسعينيات القرن الماضي، حيث برز - بديلاً من الإسلام السياسي المهيمن - مع ما يتمتع به من دينامية قوية وجاذبية وقدرة على الإبداع. ويُرجع الباحث قدرته على التوسع والانتشار إلى أربعة محددات أساسية (ص 38 - 39):

- تبلور حالة جديدة من التدين الفردي معاصرة، بطموح ذاتي بعيداً عن الجماعة، وببُعد نضالي أقل من دون أيّ مركب نقص.

- نقل معركة «الأسلمة» من حقل الديني والسياسي ذي الطابع العنفي إلى حقل الديني والاقتصادي في لعبة جديدة.

- سيادة سردية جديدة قوامها إمكانية النجاح الذاتي بعد فشل التجربة النضالية الإسلامية الجماعية، أي إدخال عقلية عالم الأعمال وتفكيره إلى الحقل الديني.

- تسييس غير الإسلاميين للإسلام؛ فإسلام السوق لا يعني نهاية السياسة بل فقط إعادة تسييس الديني على أسس نيوليبرالية قادرة على مزيد من الاحتواء.

يحلل الباحث ظاهرة «إسلام السوق» شكلاً جديداً من أشكال الكينونة الإسلامية، تخرج من صلب الإسلام السياسي أو تمر بمحاذاته، وتشترك معه في المنبع لكنها تختلف معه في الهدف والوسيلة، وتحديد مجالات العمل⁽⁸⁾. يتسم المتدينون وفق هذا النمط بميول ليبرالية تركز على ثلاثة أسس هي: الانفتاح على ثقافة

على حد سواء - لمساحاتهم البحثية حول الحركات الإسلامية، والتي بلغ فيها التأليف والإنتاج حد الإشباع⁽²⁾؛ فمعرّفاً وأكاديمياً، لا تستقيم شرعية إنجاز كتاب جديد بشأن موضوع مشبع بالدرس والتحليل، وحوله جدل واسع وممتد، إلا من زاوية النظرة النقدية لما تراكم سعيًا لاجتراح آفاق بحثية جديدة للموضوع كما هي حال هايني في هذا المؤلف⁽³⁾.

من الصدف البحثية - ربما - أن يتزامن تأليف هايني لهذا الكتاب في العاصمة الفرنسية باريس، مع صدور كتاب في لندن ذي خلفية بحثية مماثلة، أي المنظور الاقتصادي، لكن بمقاربة تكاد تكون مختلفة كلياً عما يقدمه هايني⁽⁴⁾؛ إنه كتاب «الإسلام والاقتصاد الأخلاقي: تحدي الرأسمالية» للأكاديمي البريطاني المتخصص بدراسات الشرق الأوسط والأدنى في جامعة لندن تشارلز تريپ (Ch. Tripp)⁽⁵⁾.

خطاب ديني يبحث عن إغراء⁽⁶⁾: لاهوت النجاح

جاء الكتاب مقسماً إلى أربعة فصول هي، تباعاً: تجاوز الإسلاموية؛ تدين تحركه قوى السوق؛ إسلام السوق حركة إصلاح للذوات الدينية؛ فاعلون لتحجيم الدولة، مع مقدمتين، إحداها خاصة بالطبعة العربية بعنوان «إسلام السوق بعد الربيع العربي»، وخاتمة، وملحق بالاشتراك مع الباحث المصري الراحل حسام تمام⁽⁷⁾.

كان حرياً بالمؤلف أن يجعل العنوان الفرعي للكتاب، أي «الثورة المحافظة الأخرى»، هو العنوان الأصلي، وليس إسلام السوق؛ لأن من خلاله يتجلى بدقة مضمون الكتاب الذي يركز فيه على أشكال التدين الإسلامي الجديدة، والخارجة عن مجال الحركات والأحزاب

الإسلامية⁽¹³⁾ القادرة على التكيف السريع مع المتغيرات، بل وإعادة النظر في قواعد اللعب في السوق متى فرضت الظروف ذلك، وهو ما عبّر عنه هايني بقوله: «الأخلاقية هي ما يتبقى عندما يحفز منطق السوق نحو العالمية، وعندما يتوقف المعيار الديني عن أن يكون أساساً للهوية أو ألا تركز عليه إلا من بعيد» (ص 103).

عمل هايني على امتداد صفحات الكتاب، الذي كان حصيلة استقراره وقتاً طويلاً في مصر ودول إسلامية عديدة، واستثماره صلات علمية وطيدة مع بعض التيارات الإسلامية في العالم العربي والإسلامي، فعاش في القاهرة دارساً، وتعلم اللغة العربية، وصاحب إسلاميين عن كذب، وتعرف كذلك إلى إسلاميين إندونيسيين وأتراك واطلع على تجربتهم؛ نقول عمل على تقديم «إسلام السوق» أحياناً كنزعة فردانية معولمة منشورة بين صفوف الإسلاميين، وأحياناً أخرى كحالة أو توجه قادر على تقديم إسلام معاصر بمنتجات هوياتية وعادات حياتية، وثالثة كاحتجاج ورد فعل يقدم تديناً جديداً بديلاً من التدين الحركي التقليدي.

بيد أن مجريات الثورات العربية وما أفضت إليه، تفرض علينا مساءلة الباحث مساءلة نقدية حول قدرة «إسلام السوق» على التعاطي مع متغيرات الثورات العربية، وتمكين الإسلاميين بعض الوقت في بعض الدول من ناحية، ومن ناحية أخرى تواجه محاولة هايني بسؤال إشكالي عريض مرتبط ليس فقط بأنماط التدين الممكنة هنا والآن، والتي كانت محور اشتغاله، بل أيضاً بمدى تغير طبيعة الدين من ناحية، وبمستقبل الدين كلياً من ناحية أخرى.

السوق وقيمها مثل الفعالية والتنافسية؛ الالتزام الأخلاقي بالقيم؛ تغليب المبادرات الفردية والعمل الخيري على منطق دولة الرفاه.

ويظهر من الناحية الاجتماعية أن هذا الميل ينحصر في الأغنياء المتدينين بدرجة أولى، وفي ذلك يقول الباحث: «يعكس إسلام السوق عمق التفاوت الاجتماعي الذي تستفيد منه البرجوازيات المتدينة» (ص 118).

لم تعد وظيفة السوق الترويج للأفكار وإقناع روادها بها، بل صارت تلبية طلبات الجمهور المستهدف، وأغلبه من البرجوازية المتدينة الكارهة كل نضال ذي محتوى سياسي بالمعنى الأصيل أو بالمعنى الدخيل.

على هذا الأساس يظهر الإسلام نتاجاً استهلاكياً مندمجاً في فضاء السوق الشامل، ليصبح المستهلك الإسلامي في «إسلام السوق» في مكان المناضل الإسلامي في «الإسلام السياسي». وكأننا هنا بهائني يتقاطع مع كتاب «الروح الجديدة للرأسمالية»⁽⁹⁾ الذي يذهب صاحبه مذهباً توفيقياً بين الرأسمالية ومختلف القيم الدينية السائدة في العالم.

تجاوز «إسلام السوق» أبناء الملة سعياً نحو العالمية من خلال «تشفير الهوية الدينية»، واستعمال جميع وسائل الدعاية والإغراء، والانخراط الكلي في قواعد السوق، أملاً في صناعة علامة تجارية عالمية ترفع أسهم الأصل التجاري لصاحبها.

وبذلك أضحت البرجوازية الإسلامية من يفرض منطقها، وصارت الحشمة الإسلامية استهلاكية⁽¹⁰⁾ في زمن الدعوة العصرية⁽¹¹⁾ والموسيقى الإسلامية⁽¹²⁾ والمشاريع

إسلام السوق: أسئلة ما بعد الثورة

عن «الإسلامية السياسية» لكنهم أقرب إلى «الأميركانية» ذات النموذج المحافظ، وهذا ما أثبت مرور الزمن عدم صحته، خصوصاً بعد الربيع العربي.

ومن الناحية الواقعية أيضاً، نجد أن النماذج التي اعتمدها الباحث عينة للدراسة والملاحظة قد تجاوزتها الأحداث؛ فالداعية المصري عمرو خالد مثلاً لم يتوان بعد تجربتي «ونلقى الأحبة» و«صناعة الحياة» ذات المنزع الفردي عن العودة إلى المؤسسة والصراع السياسي في المشهد المصري بالانخراط في حزب سياسي⁽¹⁶⁾.

القاعدة نفسها تسري على موقع «إسلام أون لاين» الذي اعتمد الباحث على مواده بشكل كبير؛ فالمرء يصاب بالذهول حينما يقارب مواد هذا الموقع الإلكتروني وبين أحداث ميدان التحرير إبان الثورة المصرية والفارق الكبير بينهما. وقس على ذلك في بقية النماذج التي لا نجانب الصواب إن أطلقنا عليها وصف الكاتب السعودي الراحل عبد الله القصيمي بـ«الظواهر الصوتية» أو «الكائنات الإعلامية» بتعبير آخر، التي تفقد بريقها ويخفت لمعانها مع مرور الوقت.

نشير في نقطة أخيرة إلى تناقض وقع فيه الباحث، أو إلى محاولة للاستدراك ربما، لا ندري، خصوصاً أنها وردت في المقدمة الخاصة بالطبعة العربية بعد الثورات العربية، حيث يقول: «إسلام السوق في الأخير لا يشكل بديلاً للإسلام السياسي، ولا هو آخر نموذج ينتج عنه» (ص 26)، بينما أورد في مقدمة الكتاب في نسخته الفرنسية ما يلي: «يبدو أن إسلام السوق يشكل الآن بديلاً فريداً؛ فالفضاء العام الإسلامي يهيمن عليه الإسلام السياسي... إسلام بديل يتمتع بدناميكية قوية وأكثر قدرة على الإبداع» (ص 38)، فهل العدول عن تقديم

بحلول تسعينيات القرن الماضي، بدت النخب الفكرية والثقافية حول العالم على موعد مع ما يمكن وصفه بـ«بيبلوغرافيا النهايات» وال«ما بعديات»، فمن «ما بعد الاستعمار» و«ما بعد الحداثة» إلى «ما بعد الصهيونية».. وغيرها، وصولاً إلى «ما بعد الإسلام السياسي»⁽¹⁴⁾، بيد أن هذا الاستسهال «المابعدى» سرعان ما توارى وانكفأ على نفسه بعد أحداث تاريخية كبرى، منها هجمات 11 أيلول/سبتمبر 2001، والثورات العربية سنة 2011 وما بعدها.

في هذا السياق أتى كتاب هايني، الذي صدر أول مرة باللغة الفرنسية سنة 2006 بعنوان *L'islam de marché : l'autre révolution conservatrice*، مستنداً في شق كبير منه إلى أطروحة كل من روا وكيبييل، وإن ادعى العمل على تجاوزها من خلال تقديم منظور بحثي جديد ينطلق من مقارنة مختلفة لما هو متراكم من أبحاث. بيد أنه ما انفك يعلنها من البداية، وفي مقدمة الكتاب، إذ يقول: «... وتترسخ كسردية كبرى جديدة بالنسبة لأولئك الذين خاب أملهم بعد فشل التجربة النضالية الإسلامية» (ص 40). مصادرة كهذه في مستهل الكتاب تحيل ضمناً إلى التأسيس على أطروحة سابقة هي التي أشرنا إليها سلفاً.

في المقدمة ذاتها يسقط الباحث في مطابقة غير سليمة حين يقارن بين «إسلام السوق» ونماذج «المبادرات القائمة على الإيمان» (Faith - Based Initiatives) التي تبناها الجمهوريون الأمريكيون في مشروعهم الرامي إلى نذب بعض امتيازات الخدمة العامة إلى المؤسسات الدينية الخاصة⁽¹⁵⁾، وذلك بتأكيد أن رواد «إسلام السوق» هم أبعد ما يكونون

خاتمة

تلكم الثغرات لا تُنقص من قيمة أطروحة الكتاب، وجدة المنظور البحثي الذي يعتمد به باتريك هايني؛ إذ يتفرد بإلقاء الضوء على زاوية كانت مغيبة في الأبحاث عن ظاهرة الصحوة الإسلامية وحولها، وفي القلب منها الحركة الإسلامية.

إن جانبًا كبيرًا مما قُدّم عن الموضوع لا يخرج عن ثلاث دوائر أساسية، على رأسها الأبحاث المؤطرة بخلفية أمنية والمحكومة بهاجس الضبط والتصنيف، إلى جانب الدراسات التي أنجزها أبناء التنظيمات الإسلامية التي عادة ما يتميز فيها الذاتي بالموضوعي، وهو ما يفقدها الطابع العلمي والأكاديمي، وأخيرًا دائرة الاشتغال العلمي والأكاديمي على الحركات الإسلامية بعيدًا عن خلفيات وأحكام قيمة مسبقة عن الظاهرة قيد الدراسة.

يبقى كتاب إسلام السوق عصيًا على الانضباط الكلي لإحدى تلك الدوائر، لما فيه من تجاور بين الضوابط العلمية والإسقاطات الذاتية للباحث. ويظل - بالرغم من ذلك - متفردًا بطابعه الرصدي لبعض الظواهر الإسلامية الجديدة ودعاتها ووعاظها، واستجاباتهم لتحدي العولمة والحدثة والإعلام الجماهيري، وتقديم أشكال جديدة من التدين والعمل الإسلامي، تقدم بدائل للغاضبين من الجمود الذي تشهده البنية التنظيمية للحركة الإسلامية.

الهوامش

(1) باحث سويسري مختص بالاسلامولوجيا، يعتمد في أعماله على أبحاث ميدانية في أوروبا (فرنسا، سويسرا...) والعالمين العربي والإسلامي (مصر، السودان، المغرب، لبنان، تركيا، إندونيسيا...). تولى مهمات بحثية في كثير من المراكز، منها: مركز الدراسات والتوثيق الاقتصادي والقانوني «CEDEJ» في فرنسا، ومرصد الأديان «Religioscope» في سويسرا... نال جائزة أفضل أطروحة بحثية عن العالم

«إسلام السوق» بديلاً من «الإسلام السياسي» وعي من الباحث بصعوبة الأمر، خصوصًا بعد المتغيرات التي جاءت بها الثورات العربية؟

تزداد الأسئلة محاصرة لأطروحة هايني عند مواجهته بآخر استنتاجات المفكر رضوان السيد، عقب تتبعه تجربة العقود الأربعة الأخيرة في مسار الحركة الإسلامي، في مؤلفه الأخير بعنوان «أزمة التغيير، حيث يقول: «إن الشرعية لدى الإخوان تتركز في التنظيم، وهكذا ففي المجتمع شرعية باقية من نوع ما تتمثل في التنظيم... وتأتي قدسية التنظيم من أنه الطرف الوحيد في المجتمع الذي يحتضن الفكرة بكاملها في اعتقاد منتسبيه، ولذلك تنفتت الحركات الجهادية تبعًا للاختلاف في دقائق النصوص، بينما تختلف التكتيكات والتيارات داخل الإخوان، لكن تنظيمهم يستعصي على التفتت؛ لأن الحزب أقوى بالفعل من الفكرة أو أن الفكرة لا تقوم إلا بالتنظيم»⁽¹⁷⁾.

صحيح أن قارئ الكتاب سوف يشاطر مؤلفه جملة من الأفكار الواردة فيه، وما يطرحه من إطار نظري جديد مع جدة في المقاربة وزاوية النظر، لكن يجب الاحتراز من التسهيل والاختزال والتسطيح الذي يعتمده الباحث في موضوع الحركات الإسلامية؛ فالأمر يحتاج إلى أكثر من مجرد متابعة ظواهر عابرة وفجائية واستصدار الأحكام بناء عليها، ولا أدل على ذلك من إقرار بعض الباحثين بفشل الإسلام السياسي منذ بداية العقد الأخير من القرن الماضي، بيد أنه لا يزال الفاعل الأساسي في الساحة، وهو ما يفترض اليقظة والتفطن والموضوعية في التعاطي مع هذه الظاهرة التي أرقت موضوعاتها الباحثين لما يقارب قرنًا من الزمن.

(10) في مجال اللباس مثلاً نجد تحولاً من البسة كانت تعكس «الحشمة الإسلامية» سابقاً إلى رؤية استهلاكية - على النمط الغربي - تسعى وراء العلامات التجارية العالمية مثل Streetwear (ستريت وير) و Dawahwear (دعوة وير) و Muslim by Nature (مسلم بالطبيعة) و Muslim Classic (مسلم كلاسيك).

(11) يرصد الباحث ظاهرة الدعاة الجدد وما رافقها من تدين مرح و تنافسي خفيف لفت أنظار الشباب المسلم في الشرق والغرب على السواء، ويشير تحديداً إلى المصري عمرو خالد والإندونيسي جمنستيار.

(12) من المظاهر الحية لإسلام السوق من وجهة نظر الباحث عالم الفن والموسيقى، حيث يسرد لائحة من الأسماء التي حققت شهرة عالمية في هذا المجال، من أبرزها المغني الإنكليزي المسلم سامي يوسف.

(13) مثلاً مشروع مشروب «مكة كولا» للفرنسي التونسي الأصل توفيق المثلوني، صاحب شعار «لا تشرب كالأحمق.. اشرب ملتزماً» الذي يدعم الأعمال الخيرية في اليمن وفلسطين، و«عرب كولا» صاحب شعار «تعرفوا على أنفسكم عبر مشروبنا».

(14) Olivier Roy, *L'Echec de l'Islam politique*, esprit (Paris: Seuil, 1992).

(15) بدأ هذا المشروع مع الرئيس الأميركي الأسبق بيل كلينتون تحت اسم «الخيار الخيري» (Charitable Choice)، وتطور في عهد بوش الابن ليصبح «مكتب البيت الأبيض للمبادرات القائمة على الإيمان» (The White House of the Faith - Based and Community Initiatives).

(16) في 30 آذار/مارس 2012 أعلن عمرو خالد تأسيس حزب تنموي تحت اسم حزب «مصر المستقبل».

(17) رضوان السيد، أزمدة التغيير: الدين والدولة والإسلام السياسي (أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2014)، ص 128-129.

العربي سنة 2001، ومن أهم مؤلفاته: «نظام الأعيان» (2005) و«معارك حول الإسلام في الغرب» (2009) و«ما بعد الإسلام السياسي» بالاشتراك مع أوليفيه روا.

(2) Youssef Belal, *Le Cheikh et le calife: Sociologie: religion de l'islam politique au Maroc*, sociétés, espaces, temps (Lyon: ENS Editions, 2011), 336.

(3) يجد قارئ الكتاب شيئاً من أطروحة كبار الإسلامولوجيين الغربيين، من أمثال أوليفيه روا وجيل كيبيل...، حول الحركات الإسلامية حاضرة فيه، مع طغيان البعد الاقتصادي بمفاهيمه ومصطلحات السوق، الاستهلاك، المنافسة... في البحث والتحليل.

(4) يقدم تشارلز مقارنة تركز على البعد الجماعي أو الجماعاتي وليس الفردي كما هي الحال عند باتريك، ويبحث في الرؤية الإسلامية للثروة والاقتصاد... في محاولة منه لفهم أطروحة الراديين على الرأسمالية باقتصاد أخلاقي.

(5) Charles Tripp, *Islam and the Moral Economy: The Challenge of Capitalism* (Cambridge; New York: Cambridge University Press, 2006).

(6) «خطاب ديني يبحث عن إغراء» عنوان ورقة حول الكتاب، انظر: Guy Herzligh, «Une religion en quête de séduction», *Les Echos*, Janvier 12, 2006, 15.

(7) الملحق عبارة عن دراسة نشرت في دورية المجلة الفرنسية للإدارة سنة 2008، انظر: Tammam Husam et Haenni Patrick, «Le Management, nouvelle utopie islamiste: Une lecture managériale des textes», *Revue française de gestion* 171 (Février 2007), 175-193.

(8) يشير الباحث إلى أن أغلب هؤلاء ممن تمكن من إسقاط القداسة عن الالتزام التنظيمي من خلال البحث عن طرق للخلاص الفردي، وتحقيق الذات والنجاح الاقتصادي على حساب الأزمة الثابتة بين الإسلاميين التي تفقد في أعين المنتقدين جاذبيتها رويداً رويداً.

(9) Luc Boltanski et Eve Chiapello, *Le Nouvel esprit du capitalisme*, NRF essais (Paris: Gallimard, 2006).